مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْحَادِيَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

شَرْحِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ

www.menhag-un.com

منهاج النبوة
www.menhag-un.com

الرُّكْنُ الْخَامِسُ: الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ

قَالَ الشَّيْخُ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .....

* **قُلْتُ:** الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، هُوَ: الْإِيمَانُ بِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَنَعِيمِهِ، وَسُؤَالِ الْمَلَكَيْنِ فِي الْقَبْرِ، وَكُلِّ مَا يَكُونُ بَعْدَ الْقَبْرِ.

فَهَذَا هُوَ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالَّذِي يَكُونُ بَعْدَ الْقَبْرِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ هُوَ الْبَعْثُ، وَالنَّشْرُ، وَالْحَشْرُ، وَالْحِسَابُ، وَوَزْنُ الْأَعْمَالِ، وَالصِّرَاطُ، وَالْمِيزَانُ الَّذِي تُوزَنُ بِهِ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ، وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ، وَتَفَاصِيلُ مَا يَحْصُلُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ فَنُؤْمِنُ بِذَلِكَ كُلِّهِ إِجْمَالًا، وَتَفْصِيلًا.

تَفْصِيلًا فِيمَا فَصَّلَ، وَإِجْمَالًا فِيمَا أَجْمَلَ بِدَايَةً مِنَ الْمَوْتِ إِلَىٰ أَنْ يَسْتَقِرَّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، فَكُلُّ مَا صَحَّ فِي هَذَا نُؤْمِنُ، وَلَا نَشُكُّ فِي شَيْءٍ مِنْهُ، وَمَنْ شَكَّ فِي شَيْءٍ مِنْهُ، فَهُوَ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ عَنِ الْإِسْلَامِ(١).

(١) «شَرْحُ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ» لِلشَّيْخِ صَالِحِ الْفَوْزَانِ (ص٢١٥ - ٢١٦، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ).

www.menhag-un.com

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْيَوْمُ الْآخِرُ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي يُبْعَثُ النَّاسُ فِيهِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ.

وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَوْمَ بَعْدَهُ، حَيْثُ يَسْتَقِرُّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي مَنَازِلِهِمْ.

* **قُلْتُ**: الدُّنْيَا كَأَنَّهَا الْيَوْمُ الْأَوَّلُ، فَهِيَ يَوْمٌ مَهْمَا طَالَتْ كُلُّهَا مُنْذُ خَلَقَهَا إِلَىٰ أَنْ يَرِثَهَا كَأَنَّهَا يَوْمٌ، وَيَوْمُ الْقِيَامَةِ يَوْمٌ لَا يَوْمَ بَعْدَهُ، فَهُوَ الْيَوْمُ الْآخِرُ كَمَا تَقُولُ مَثَلًا مُذَكِّرًا وَوَاعِظًا: اتَّقِ لَيْلَةً صُبْحُهَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ اتَّقِ لَيْلَةَ وَخَفْهَا، لَيْلَةٌ صُبْحُهَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَهِيَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ تَكُونُ فِي الْقَبْرِ لَا صُبْحَ لَهَا إِلَّا مَا يَكُونُ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَكَ مَثَلًا وَعْظًا وَتَذْكِيرًا: اتَّقِ يَوْمًا هُوَ الْيَوْمُ الْآخِرُ الَّذِي لَا يَوْمَ بَعْدَهُ، وَاتَّقِ لَيْلَةً صُبْحُهَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

قَالَ الشَّيْخُ الشَّارِحُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ الْعُثَيْمِينِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ **يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ**:

الْأَوَّلُ: الْإِيمَانُ بِالْبَعْثِ: وَهُوَ إِحْيَاءُ الْمَوْتَىٰ حِينَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ، فَيَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، حُفَاةً غَيْرَ مُنْتَعِلِينَ، عُرَاةً غَيْرَ مُسْتَتِرِينَ، غُرْلًا غَيْرَ مُخْتَتِنِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وَالْبَعْثُ: حَقٌّ ثَابِتٌ دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَإِجْمَاعُ الْمُسْلِمِينَ.

www.menhaj-un.com

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥- ١٦].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ ثُبُوتِهِ، وَهُوَ مُقْتَضَىٰ الْحِكْمَةِ حَيْثُ تَقْتَضِي أَنْ يَجْعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ لِهَذِهِ الْخَلِيقَةِ مَعَادًا يُجَازِيهِمْ فِيهِ عَلَىٰ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

الثَّانِي: الْإِيمَانُ بِالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ: يُحَاسَبُ الْعَبْدُ عَلَىٰ عَمَلِهِ، وَيُجَازَىٰ عَلَيْهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَإِجْمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

وَقَالَ: ﴿**مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [الأنعام: ١٦٠].

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي (الرِّقَاقِ، ٤٥: ٦، رَقْمُ ٦٥٢٧)، وَمُسْلِمٌ فِي (صِفَةِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ١٤: ٢، رَقْمُ ٢٨٥٩)، مِنْ حَدِيثِ: عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وَقَالَ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

* **قُلْتُ:** وَالْقِسْطُ: الْعَدْلُ، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ أَيِ: الْمَوَازِينَ ذَوَاتِ الْعَدْلِ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّىٰ إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَىٰ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَىٰ كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيُنَادَىٰ بِهِمْ عَلَىٰ رُءُوسِ الْخَلَائِقِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

وَصَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنَّ مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَىٰ سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ إِلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَأَنَّ مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً**»(٢).

وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ إِثْبَاتِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ عَلَىٰ الْأَعْمَالِ، وَهُوَ مُقْتَضَىٰ الْحِكْمَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْزَلَ الْكُتُبَ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ، وَفَرَضَ عَلَىٰ الْعِبَادِ

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي (الْمَظَالِمِ، ٢، رَقْمُ ٢٤٤١)، وَمُسْلِمٌ فِي (التَّوْبَةِ، ٨: ٨، رَقْمُ ٢٧٦٨).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي (الرِّقَاقِ، ٣١، رَقْمُ ٦٤٩١)، وَمُسْلِمٌ فِي (الْإِيمَانِ، ٥٩: ٥، رَقْمُ ١٣١)، مِنْ حَدِيثِ: ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَبُولَ مَا جَاءُوا بِهِ، وَالْعَمَلَ بِمَا يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ مِنْهُ، وَأَوْجَبَ قِتَالَ الْمُعَارِضِينَ لَهُ وَأَحَلَّ دِمَاءَهُمْ، وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَنِسَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ.

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ حِسَابٌ، وَلَا جَزَاءٌ لَكَانَ هَذَا مِنَ الْعَبَثِ الَّذِي يُنَزَّهُ الرَّبُّ الْحَكِيمُ عَنْهُ، وَقَدْ أَشَارَ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦- ٧].

الثَّالِثُ: الْإِيمَانُ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَنَّهُمَا الْمَآلُ الْأَبَدِيُّ لِلْخَلْقِ، فَالْجَنَّةُ دَارُ النَّعِيمِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ بِهِ، وَقَامُوا بِطَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ، مُخْلِصِينَ لِلَّهِ مُتَّبِعِينَ لِرَسُولِهِ. فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ النَّعِيمِ: «**مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ**»(١).

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧- ٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي (بَدْءِ الْخَلْقِ، ٨: ٥، رَقْمُ ٣٢٤٤)، وَمُسْلِمٌ فِي (صِفَةِ الْجَنَّةِ، ١: ٣، رَقْمُ ٢٨٢٤)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وَأَمَّا النَّارُ فَهِيَ دَارُ الْعَذَابِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَىٰ لِلْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَىٰ الْبَالِ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

وَقَالَ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

* **قُلْتُ:** ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾، أَيْ فُسْطَاطُهَا أَوْ لَهَبُهَا وَدُخَانُهَا، ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ﴾، وَالْمُهْلُ: دُرْدِيُّ الزَّيْتِ أَوْ عَكَرُ الزَّيْتِ أَوِ الْمُذَابُ مِنَ الْمَعَادِنِ، ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ أَيْ مُتَّكَئًا، وَمَقَرًّا.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللهُ: وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٦٥ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٤- ٦٦].

وَيَلْتَحِقُ بِالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ مِثْلَ:

(أ) فِتْنَةِ الْقَبْرِ: وَهِيَ سُؤَالُ الْمَيِّتِ بَعْدَ دَفْنِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ.

* **قُلْتُ:** وَهِيَ الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللهُ: فَيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ، فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ فَيَقُولُ الْكَافِرُ:

هَاه، هَاه، لَا أَدْرِي. وَيَقُولُ الْمُنَافِقُ أَوِ الْمُرْتَابُ: لَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ(١).

(ب) **عَذَابُ الْقَبْرِ وَنَعِيمُهُ:** فَيَكُونُ الْعَذَابُ لِلظَّالِمِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

* **قُلْتُ:** هَذَا كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ يَحْدُثُ فِي النَّزْعِ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ، فَأَلْحَقَ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- ذَلِكَ بِذَلِكَ، وَأَتَىٰ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللهُ: وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

* **قُلْتُ:** وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، وَإِتْبَاعُهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَهَذَا مَا اسْتَدَلَّ بِهِ أَهْلُ الْعِلْمِ، فَقَالُوا: إِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْقَبْرِ فَيُعْرَضُونَ عَلَىٰ النَّارِ غُدُوًّا وَعَشِيًّا فِي الْبَرْزَخِ حَتَّىٰ يُقِيمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ السَّاعَةَ.

---

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» فِي (السُّنَّةِ، ٢٧: ٤، رَقْمُ ٤٧٥٣)، مِنْ حَدِيثِ: الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (٣٥٥٨)، وَأَصْلُهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»(١)، مِنْ حَدِيثِ: زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ**»، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ**»، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**»، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، قَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ**»، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ.

وَأَمَّا نَعِيمُ الْقَبْرِ فَلِلْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

* **قُلْتُ**: وَيُقَالُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا قِيلَ فِي الْآيَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّيْخُ فِي الِاسْتِدْلَالِ بِالْآيَاتِ عَلَىٰ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَإِنَّ هَذَا يَكُونُ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ، وَفِي سِيَاقِ الْمَوْتِ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٣- ٨٩]... إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ.

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي (صِفَةِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ١٧، رَقْمُ ٢٨٦٧).

www.menhaj-un.com

* **قُلْتُ:** هَذَا أَيْضًا كَالَّذِي مَرَّ فَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ فِي الْمُؤْمِنِ إِذَا أَجَابَ الْمَلَكَيْنِ فِي قَبْرِهِ: «**يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ**» قَالَ: «**فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ**»، رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ(١).

* **قُلْتُ:** فَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ مَا يَكُونُ فِي الْقَبْرِ مِنْ نَعِيمٍ، وَعَذَابٍ، وَأَمَّا أَهْلُ الزَّيْغِ، وَالضَّلَالِ فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَقُولُ: لَا نَأْخُذُ بِهَذِهِ الْأَدِلَّةِ.

فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: لِمَاذَا؟

يَقُولُونَ: أَمَّا الْأَدِلَّةُ الصَّحِيحَةُ فَغَيْرُ صَرِيحَةٍ، وَأَمَّا الْأَدِلَّةُ الصَّرِيحَةُ فَغَيْرُ صَحِيحَةٍ.

يَقُولُونَ: الْأَدِلَّةُ الصَّحِيحَةُ لَا تُصَرِّحُ فَمَا جِئْتُمْ بِهِ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَهُوَ مُتَوَاتِرٌ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ تُؤْخَذُ مِنْهُ الْعَقِيدَةُ عَلَىٰ زَعْمِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يُنَازِعُونَ فِي هَذَا الْأَصْلِ الْكَبِيرِ، وَهُوَ: **هَلْ يُؤْخَذُ بِأَحَادِيثِ الْآحَادِ فِي الْعَقِيدَةِ أَوْ لَا؟**

فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنْكَرَ عَذَابَ الْقَبْرِ وَنَعِيمَهُ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ الْعَلِيلَةِ، بَلِ الْعِلَّةِ الْمَيِّتَةِ.

---

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» فِي (السُّنَّةِ، ٢٧: ٤، رَقْمُ ٤٧٥٣)، وَأَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» (٤/ ٢٨٧ - ٢٨٨، رَقْمُ ١٨٥٣٤) وَمَوَاضِعَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ.

وَقَالُوا -دَافِعِينَ فِي وُجُوهِ أَهْلِ السُّنَّةِ لَمَّا اسْتَدَلُّوا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ-: أَمَّا مَا جِئْتُمْ بِهِ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ، وَذَلِكَ صَحِيحٌ مُتَوَاتِرٌ فَغَيْرُ صَرِيحٍ فِي الدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْمَقْصُودِ، وَأَمَّا مَا جِئْتُمْ بِهِ مِنَ النُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ الَّتِي تُصَرِّحُ بِعَذَابِ الْقَبْرِ، وَنَعِيمِهِ فَهِيَ مِمَّا لَا تَنْهَضُ بِه حُجَّةٌ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَبْلُغْ مَبْلَغَ الْمُتَوَاتِرِ، وَهَذِهِ مِنَ الْبِدَعِ الَّتِي تَوَرَّطَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ، وَبِخَاصَّةٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يُوصَفُ بِالْعِلْمِ عِنْدَ الْعَامَّةِ، وَأَشْبَاهِهِمْ.

يَقُولُونَ: لَا يُؤْخَذُ بِأَحَادِيثِ الْآحَادِ فِي مَسَائِلِ الِاعْتِقَادِ، وَهَذَا وَهْمٌ بَاطِلٌ، وَزَيْغٌ زَائِفٌ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ.

جامعة منهاج النبوة www.menhag-un.com

ثَمَرَاتُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلِلْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ **ثَمَرَاتٌ جَلِيلَةٌ مِنْهَا:**

الْأُولَىٰ: الرَّغْبَةُ فِي فِعْلِ الطَّاعَةِ وَالْحِرْصِ عَلَيْهَا رَجَاءً لِثَوَابِ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

الثَّانِيَةُ: الرَّهْبَةُ فِي فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ وَالرِّضَا بِهَا خَوْفًا مِنْ عِقَابِ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

* **قُلْتُ:** وَكُلَّمَا كَانَ الْمَرْءُ عَالِمًا بِتَفَاصِيلِ مَا أَعَدَّ اللهُ تَعَالَىٰ لِلطَّائِعِينَ، وَبِتَفَاصِيلِ مَا أَعَدَّ اللهُ لِلْمُجْرِمِينَ الْمُنَافِقِينَ الْعَاصِينَ الْمُكَذِّبِينَ -كُلَّمَا كَانَ كَذَلِكَ- كَانَ أَحْرَصَ عَلَىٰ فِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْمَعْصِيَاتِ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: الثَّالِثَةُ: تَسْلِيَةُ الْمُؤْمِنِ عَمَّا يَفُوتُهُ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا يَرْجُوهُ مِنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَثَوَابِهَا.

* **قُلْتُ:** يَزْدَادُ إِيمَانًا بِرَبِّهِ، وَبِحِكْمَةِ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَقُدْرَتِهِ عَلَىٰ إِعَادَةِ الْأَجْسَامِ بَعْدَ تَحَلُّلِهَا، وَذَهَابِهَا فَيُعِيدُهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَيَبْعَثُ الْخَلْقَ يَقُومُونَ كَمَا كَانُوا: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا غَيْرَ مَخْتُونِينَ يَقُومُونَ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَأَيْضًا فِيهِ: الْإِيمَانُ بِعَدْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا؛ لِأَنَّ الْقَضَايَا الْمُعَلَّقَةَ فِي الْحَيَاةِ كَثِيرَةٌ، وَمَا أَكْثَرَ الْمَظَالِمَ فِي الْحَيَاةِ الَّتِي لَا يُفْصَلُ فِيهَا!

فَإِذَا كَانَ النَّاسُ يَمُوتُونَ فَيَذْهَبُونَ فِي طَبَقَاتِ الْأَرْضِ، وَلَا يُبْعَثُونَ، وَلَا يَقُومُونَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِيُحَاسِبَهُمْ عَلَىٰ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ كَانَ هَذَا ظُلْمًا بَيِّنًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ لَا تُفْصَلُ، وَلَا تُفْصَلُ فِيهَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَتَظَلُّ مُعَلَّقَةً، وَيَذْهَبُ صَاحِبُ الْحَقِّ إِلَىٰ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ثُمَّ لَا يَحْصُلُ عَلَىٰ حَقِّهِ بَعْدَ ذَلِكَ فَهَذَا فِيهِ مَا فِيهِ.

وَأَيْضًا فِيهِ -يَعْنِي فِي الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا أَعَدَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلطَّائِعِينَ وَالْعَاصِينَ مِنَ النَّعِيمِ وَالْجَحِيمِ فِي الْإِيمَانِ بِذَلِكَ- مَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْعَلَ كَثِيرًا مِنَ الْخَلْقِ وَقَّافًا عِنْدَ حُدُودِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُسَارِعًا فِي الْخَيْرَاتِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَمِنَ الْعِقَابَ أَسَاءَ الْأَدَبَ، فَإِذَا كَانَ دَائِمًا الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ مِنْهُ عَلَىٰ ذُكْرٍ وَعَلَىٰ بَالٍ، وَيَعْلَمُ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِذَا أَطَاعَهُ الْعَبْدُ أَثَابَهُ، وَإِذَا عَصَىٰ رَبَّهُ عَاقَبَهُ فَجَعَلَ الْعِقَابَ دَائِمًا حَاضِرًا، وَكَذَلِكَ يَكُونُ الثَّوَابُ حَاضِرًا فَإِنَّهُ يُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ، وَيَبْتَعِدُ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ رَجَاءَ ثَوَابِ رَبِّهِ، وَحِرْصًا عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ الطَّاعَةُ وِقَايَةً لَهُ مِنَ النَّارِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ لِلْعَاصِينَ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللهُ: وَقَدْ أَنْكَرَ الْكَافِرُونَ الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ زَاعِمِينَ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمْكِنٍ.

* **قُلْتُ:** وَيَتَعَلَّلُونَ بِعِلَلٍ يَجْعَلُونَ الْعَقْلَ فِيهَا رَائِدَهُمْ فَيَقُولُونَ: إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ تَحَلَّلَ، وَذَهَبَتْ ذَرَّاتُهُ، ثُمَّ صَارَتْ شَيْئًا آخَرَ، فَتَسْتَحِيلُ، فَكَيْفَ يُعَادُ ذَلِكَ؟!

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا الزَّعْمُ بَاطِلٌ دَلَّ عَلَىٰ بُطْلَانِهِ الشَّرْعُ، وَالْحِسُّ، وَالْعَقْلُ.

أَمَّا مِنَ الشَّرْعِ: فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، وَقَدِ اتَّفَقَتْ جَمِيعُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا الْحِسُّ: فَقَدْ أَرَىٰ اللهُ عِبَادَهُ إِحْيَاءَ الْمَوْتَىٰ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ خَمْسَةُ أَمْثِلَةٍ عَلَىٰ ذَلِكَ وَهِيَ:

الْمِثَالُ الْأَوَّلُ: قَوْمُ مُوسَىٰ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، فَأَمَاتَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

* **قُلْتُ:** ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: أَيِ النَّارُ الَّتِي نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمِثَالُ الثَّانِي: فِي قِصَّةِ الْقَتِيلِ الَّذِي اخْتَصَمَ فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَأَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَذْبَحُوا بَقَرَةً فَيَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا لِيُخْبِرَهُمْ بِمَنْ قَتَلَهُ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢- ٧٣].

* **قُلْتُ**: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، يَعْنِي: فَتَدَافَعْتُمْ، وَتَخَاصَمْتُمْ فِيهَا، وَكُلُّكُمْ يَدَّعِي أَنَّهُ لَمْ يُبَاشِرِ الْقَتْلَ، وَلَمْ يَكُنْ وَسِيلَةً إِلَيْهِ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمِثَالُ الثَّالِثُ: فِي قِصَّةِ الْقَوْمِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فِرَارًا مِنَ الْمَوْتِ وَهُمْ أُلُوفٌ، فَأَمَاتَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

الْمِثَالُ الرَّابِعُ: فِي قِصَّةِ الَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ مَيِّتَةٍ فَاسْتَبْعَدَ أَنْ يُحْيِيَهَا اللهُ تَعَالَىٰ، فَأَمَاتَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِئَةَ سَنَةٍ، ثُمَّ أَحْيَاهُ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً

لِلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

* **قُلْتُ:** ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾، يَعْنِي: وَهِيَ سَاقِطَةٌ عَلَىٰ سُقُوفِهَا الَّتِي هَوَتْ فَسَقَطَتِ السُّقُوفُ، ثُمَّ كَانَتِ الْحِيطَانُ سَاقِطَةً فَوْقَهَا، وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا، ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾، أَيْ: كَيْفَ أَوْ مَتَىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟! ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾: لَمْ يَتَغَيَّرْ مَعَ مُرُورِ السِّنِينَ عَلَيْهِ، وَكَانَ قَدْ ظَلَّ مِئَةَ عَامٍ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَتَغَيَّرْ ذَلِكَ الشَّرَابُ الَّذِي كَانَ مَعَهُ، وَلَمْ يَفْسَدْ، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ لَهُ لَوْنٌ، وَلَا طَعْمٌ، وَلَا رِيحٌ، بَلْ ظَلَّ عَلَىٰ حَالِهِ كَأَنَّهُ إِنَّمَا قَدْ أُعِدَّ الْآنَ أَوْ مُنْذُ حِينٍ يَسِيرٍ، ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾: وَكَانَ الْحِمَارُ عِظَامًا تَلُوحُ فَأَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تِلْكَ الْعِظَامَ بِأَنْ تَرْتَفِعَ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَأَنْ تُرَدَّ إِلَىٰ أَمَاكِنِهَا مِنَ الْجَسَدِ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللهُ: الْمِثَالُ الْخَامِسُ: فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ حِينَ سَأَلَ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ؟

* **قُلْتُ:** وَقَدْ سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِوُقُوعِ ذَلِكَ لَمْ يَمْتَرِ فِيهِ، وَلَمْ يَشُكَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَإِنَّمَا سَأَلَ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ لَا أَكْثَرَ.

www.menhag-um.com

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَذْبَحَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ، وَيُفَرِّقَهُنَّ أَجْزَاءً عَلَىٰ الْجِبَالِ الَّتِي حَوْلَهُ، ثُمَّ يُنَادِيهِنَّ فَتَلْتَئِمَ الْأَجْزَاءُ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، وَيَأْتِينَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ سَعْيًا، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فَهَذِهِ أَمْثِلَةٌ حِسِّيَّةٌ وَاقِعِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ إِمْكَانِيَّةِ إِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ، وَقَدْ سَبَقَتِ الْإِشَارَةُ إِلَىٰ مَا جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ آيَاتِ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَىٰ.

* **قُلْتُ:** هَذَا كُلُّه كَمَا تَرَىٰ يَعُودُ فِي النِّهَايَةِ إِلَىٰ الْكِتَابِ، وَلَوْ كَانَ مُنْكِرُوا الْبَعْثِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ لَآمَنَ بِالْبَعْثِ مِنْ غَيْرِ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ فِي الْقُرْآنِ وَاضِحٌ عَلَىٰ بَعْثِ النَّاسِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، فَهَلْ يَنْفَعُ أَنْ يُذَكَّرَ مُنْكِرُ الْبَعْثِ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِي هَذِهِ الْأَمْثِلَةِ الَّتِي ضَرَبَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي سُورَةٍ وَاحِدَةٍ، قَدْ لَا يَنْفَعُ مَعَ مَنْ يُنْكِرُ الْبَعْثَ فَيُرَدُّ حِينَئِذٍ إِلَىٰ دَلَالَةِ الْعَقْلِ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَأَمَّا دَلَالَةُ الْعَقْلِ فَمِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا، خَالِقُهُمَا ابْتِدَاءً، وَالْقَادِرُ عَلَىٰ ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ لَا يَعْجَزُ عَنْ إِعَادَتِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

* **قُلْتُ:** قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، هَلْ هُوَ عَلَىٰ بَابِهِ فِي أَفْعَلِ التَّفْضِيلِ؟ يَعْنِي هَلْ عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هَيِّنٌ، وَأَهْوَنُ مِنْهُ؟!

حَاشَا، بَلْ كُلُّهُ عَلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هَيِّنٌ، وَلَكِنَّ هَذَا مِثَالٌ يُضْرَبُ مِنْ أَجْلِ تَحْرِيكِ الْعَقْلِ بِالنَّظَرِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَمِنْ أَجْلِ الدَّلَالَةِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَىٰ الْمَقْصُودِ، وَمِنْ أَجْلِ انْتِزَاعِ الْإِقْرَارِ بِالْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ مِنَ الْمُعَارِضِ الْمُخَالِفِ الْمُعَانِدِ، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، فَيُقَالُ عَقْلًا: إِذَا كَانَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ خَلَقَ هَذَا الْخَلْقَ مِنَ الْعَدَمِ أَفَلَا يُعِيدُهُ بَعْدَ أَنْ يُفْنِيَهُ؟ أَفَلا يُعِيدُهُ ﷻ وَيَرُدُّهُ؟ أَلَيْسَ ذَلِكَ أَهْوَنَ مِنَ ذَلِكَ؟

وَأَمَّا عَلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَلَا يُقَالُ هَذَا وَلَا هَذَا، كُلُّهُ أَهْوَنُ عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَكُلُّهُ هَيِّنٌ عَلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللهُ: وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وَقَالَ آمِرًا بِالرَّدِّ عَلَىٰ مَنْ أَنْكَرَ إِحْيَاءَ الْعِظَامِ وَهِيَ رَمِيمٌ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

* **قُلْتُ:** فَيُقَالُ لِمَنْ يُنْكِرُ الْبَعْثَ هَذَا الْكَوْنُ، وَسَتَعُودُ إِلَىٰ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: هَلْ خُلِقَ هَذَا الْخَلْقُ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ خَلَقَ نَفْسَهُ؟

خَلَقَتْهُ الصُّدْفَةُ أَمْ خَلَقَ نَفْسَهُ أَمْ خُلِقَ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ؟

www.menaq-un.com

وَهَذَا بَاطِلٌ عَقْلًا فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ خَلَقَهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ الَّذِي هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فَيُثْبِتُ وُجُودَ الصَّانِعِ يُثْبِتُ وُجُودَ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَإِنَّكَ تَقُولُ لَهُ: إِذَا كَانَ قَدْ أَنْشَأَ، وَخَلَقَ هَذَا، وَكُلُّ هَذَا حَادِثٍ بِمَعْنَىٰ أَنَّهُ خُلِقَ وَلَمْ يَكُنْ، كَانَ مَعْدُومًا فَأَوْجَدَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَهَذَا الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَأَوْجَدَهُ أَلَيْسَ إِذَا أَفْنَاهُ أَلَيْسَ قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يُعِيدَهُ؟

فَإِنَّهُ قَدْ أَنْشَأَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَهَذَا هُوَ الْوَجْهُ الْأَوَّلُ مِنْ وَجْهَيِ الدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللهُ: الثَّانِي: أَنَّ الْأَرْضَ تَكُونُ مَيِّتَةً هَامِدَةً لَيْسَ فِيهَا شَجَرَةٌ خَضْرَاءُ، فَيَنْزِلُ عَلَيْهَا الْمَطَرُ فَتَهْتَزُّ خَضْرَاءَ حَيَّةً فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، وَالْقَادِرُ عَلَىٰ إِحْيَائِهَا بَعْدَ مَوْتِهَا، قَادِرٌ عَلَىٰ إِحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

* **قُلْتُ:** ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾، أَيْ: تَرَاهَا يَابِسَةً مُتَطَامِنَةً جَدْبَةً هَابِطَةً مُتَشَقِّقَةً مَيِّتَةً، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾: تَحَرَّكَتْ بِالنَّبَاتِ، ﴿وَرَبَتْ﴾: انْتَفَخَتْ، وَعَلَتْ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فَضَرَبَ هَذَا الْمِثَالَ الَّذِي لَا يَمْتَرِي فِيهِ ذُو عَقْلٍ.

www.menhaj-un.com

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩- ١١].

* **قُلْتُ**: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أَيْ: حَبَّ الزَّرْعِ الَّذِي يُحْصَدُ، ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ الطَّلْعُ هُوَ: ثَمَرُهَا مَادَامَ فِي وِعَائِهِ، وَالنَّضِيدُ: الْمُتَرَاكِمُ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ يَعْنِي: بِهَذَا الْمَاءِ الْمُبَارَكِ الَّذِي نَزَّلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ أَحْيَيْنَا بَلْدَةً مَيْتًا.

فَضَرَبَ الْمِثَالَ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْكَرَ، أَلَا تَرَوْنَ ذَلِكَ بِأَعْيُنِكُمْ؟ أَلَا تُشَاهِدُونَهُ، وَتُبْصِرُونَهُ، وَتَرُوحُونَ، وَتَجِيئُونَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ حِينٍ وَحَالٍ؟! وَمَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلَّا وَقَدْ رَآهُ فِي بُقْعَةٍ مِنْ أَرْضِ اللهِ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ، قَالَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ فَتَأَمَّلُوا فِي هَذَا وَأَعْمِلُوا عُقُولَكُمْ، وَافْتَحُوا أَعْيُنَ الْبَصَائِرِ فِي قُلُوبِكُمْ، وَأَفْئِدَتِكُمْ فَسَتَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَأَنَّهُ لَا يَتَفَاوَتُ، وَأَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

www.menhag-un.com

الرَّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ بِالشَّرْعِ وَالْحِسِّ وَالْعَقْلِ

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ **فَأَنْكَرُوا عَذَابَ الْقَبْرِ** وَنَعِيمَهُ، زَاعِمِينَ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمْكِنٍ لِمُخَالَفَةِ الْوَاقِعِ، قَالُوا: فَإِنَّهُ لَوْ كُشِفَ عَنِ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ لَوُجِدَ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ، وَالْقَبْرُ لَمْ يَتَغَيَّرْ بِسَعَةٍ وَلَا ضِيقٍ.

* **قُلْتُ:** وَهَذَا مِنْ إِعْمَالِ الْعَقْلِ مَعَ النَّقْلِ، وَمِنْ إِعْمَالِ الْعَقْلِ فِي غَيْرِ مَجَالِهِ، وَمِنْ إِعْمَالِ الْعَقْلِ بِطَرِيقَةٍ خَائِبَةٍ غَيْرِ مُنْتِجَةٍ.

فَالْعَقْلُ لَهُ حُدُودٌ يَنْبَغِي أَنْ يَتَوَقَّفَ عِنْدَهَا، وَيَنْبَغِي أَلَّا يَتَجَاوَزَهَا، وَبِهَذَا يُقِرُّ كُلُّ عَاقِلٍ أَنَّ الْعَقْلَ لَهُ حُدُودٌ لَا يَتَجَاوَزُهَا، وَإِذَا تَعَدَّاهَا فَإِنَّ الْخَلْطَ يَتَأَتَّىٰ إِلَيْهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ فَمِنَ الْعَقْلِ أَلَّا يَتَجَاوَزَ بِالْعَقْلِ حَدَّهُ، وَأَنْ يُوقَفَ الْعَقْلُ عِنْدَ حَدِّهِ، فَهذَا مِنَ الْعَقْلِ أَصْلًا.

وَلَكِنَّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ يَقُولُونَ: إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ، وَأُدْخِلَ الْقَبْرَ فَالنَّاسُ عِنْدَ الْقَبْرِ يَرَوْنَهُ، وَلَا سَعَةَ هُنَالِكَ، وَلَا ضِيقَ، وَالنَّاسُ عِنْدَ الْقَبْرِ، وَهَذَا الَّذِي يُقَالُ مِنَ الْعَذَابِ، وَالنَّعِيمِ لَا يُبْصَرُ، وَلَا يُسْمَعُ، وَلَوْ فَتَحْتَ الْقَبْرَ بَعْدَ حِينٍ، وَنَظَرْنَا إِلَىٰ الْمَيِّتِ، وَكُنَّا كَمَا ضُرِبَ الْمِثَالُ قَبْلُ وَكُنَّا قَدْ وَضَعْنَا عَلَىٰ بَطْنِ الْمَيِّتِ الزِّئْبَقَ الرَّجْرَاجَ، وَهُوَ لَا يَسْتَقِرُّ إِلَّا عَلَىٰ مُسْتَقِرٍّ، فَلَوْ نَظَرْنَا لَوَجَدْنَا الزِّئْبَقَ عَلَىٰ حَالِهِ، فَكَيْفَ يُقَالُ: إِنَّهُ أُقْعِدَ، وَتَكَلَّمَ لَمَّا سُئِلَ سَوَاءٌ أَجَابَ أَمْ قَالَ: لَا أَدْرِي؟

فَهَذَا وَهَذَا كَانَ دَاعِيًا إِلَىٰ وُقُوعِ هَذَا الَّذِي جُعِلَ عَلَىٰ بَطْنِهِ أَوْ صَدْرِهِ مِنَ الزِّئْبَقِ الَّذِي وَضَعْنَاهُ، فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ فَتَحْنَا عَلَيْهِ قَبْرَهُ، وَنَظَرْنَا فَسَنَجِدُ الْأَمْرَ عَلَىٰ حَالِهِ، هَذَا كُلُّهُ مِنْ إِعْمَالِ الْعَقْلِ فِي غَيْرِ مَجَالِهِ، وَالْعَقْلُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلَ فِي غَيْرِ مَجَالِهِ.

وَقَالُوا: لَوْ كُشِفَ عَنِ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ لَوُجِدَ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ، وَالْقَبْرُ لَمْ يَتَغَيَّرْ بِسَعَةٍ وَلَا ضِيقٍ، هَذَا الزَّعْمُ إِذَا زُعِمَ، وَنَحْنُ فِي زَمَانٍ كَثُرَ فِيهِ قَوْلُ الْإِلْحَادِ وَالْكُفْرِ، وَكَثُرَ فِيهِ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلَامِ الْبَاطِلِ، وَيُهَاجِمُ الْعَقَائِدَ، وَيَتَحَلَّلُ مِنَ الدِّيَانَاتِ، وَيُنْكِرُ وُجُودَ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ حَتَّىٰ صَارَ فِي بَعْضِ بِلَادِ الْكُفْرِ، بَلْ فِي أَكْثَرِهَا، بَلْ فِي كُلِّهَا صَارَتْ خَانَةُ الدِّيَانَةِ أَنَّهُ غَيْرُ مُعْتَقِدٍ أَنَّهُ مُلْحِدٌ فِي خَانَةِ الدِّيَانَةِ يُكْتَبُ أَنَّهُ غَيْرُ مُعْتَقِدٍ يَعْنِي هُوَ مُلْحِدٌ، يَعْنِي هُوَ مُنْكِرٌ لِوُجُودِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فَفِي زَمَانٍ عَمَّ فِيهِ الْإِلْحَادُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبِقَاعِ، وَكَثُرَ فِيهِ إِنْكَارُ وُجُودِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَضْلًا عَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْغَيْبِيَّاتِ، فِي عَصْرٍ هَذَا شَأْنُهُ، وَهَذَا حَالُ أَبْنَائِهِ أَوْ حَالُ كَثِيرٍ مِنْ أَبْنَائِهِ يَنْبَغِي عَلَىٰ الْمُسْلِمِ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ أَنْ يَكُونَ وَاعِيًا لِيَعْتَقِدَ الِاعْتِقَادَ الصَّحِيحَ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ جِهَةٍ، وَلِكَيْ يُدَافِعَ عَنْ دِينِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ النِّيَّةَ الَّتِي يَطْلُبُ بِهَا طَالِبُ الْعِلْمِ الْعِلْمَ الشَّرْعِيَّ هِيَ أَنْ يَعْرِفَ بِالْعِلْمِ رَبَّهُ، وَأَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ يَعْبُدُ رَبَّهُ، وَأَنْ يَكُونَ بِهَذَا الْعِلْمِ دَاعِيًا إِلَىٰ اللهِ

تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَأَنْ يُنَافِحَ عَنْ دِينِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْعِلْمِ الَّذِي تَعَلَّمَهُ، فَمِنَ النِّيَّاتِ الَّتِي يَنْوِيهَا طَالِبُ الْعِلْمِ عِنْدَ الطَّلَبِ أَنْ يُدَافِعَ عَنْ دِينِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْعِلْمِ الَّذِي تَعَلَّمَهُ، وَكَيْفَ يُدَافِعُ طَالِبُ الْعِلْمِ عَنْ دِينِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ.

وَهَذَا يَتَكَلَّمُ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُعْمِلُونَ الْعُقُولَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَعْمَلُ فِيهَا الْعُقُولُ أَصْلًا، وَإِنَّمَا الْعَقْلُ يَعْمَلُ فِي تَوْثِيقِ النَّصِّ فَقَطْ، يَعْمَلُ الْعَقْلُ فِي تَوْثِيقِ النَّصِّ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ الْغَيْبِيَّةِ يَتَوَقَّفُ عِنْدَ حُدُودِ التَّوْثِيقِ، فَإِذَا ثَبَتَ النَّصُّ فَمَا هُوَ إِلَّا الْإِذْعَانُ وَالتَّسْلِيمُ.

وَهَذَا هُوَ الْإِيمَانُ الصِّدِّيقِيُّ كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ لَمَّا قَالُوا لَهُ: «إِنَّ صَاحِبَكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ، ثُمَّ عَادَ، وَفِرَاشُهُ لَمْ يَزَلْ دَافِئًا بَعْدُ، فَوَثَّقَ النَّصَّ قَالَ: أَنْتُمْ تَكْذِبُونَ عَلَيَّ، قَالُوا: لَا، بَلْ قَالَ، قَالَ: إِنْ كَانَ قَالَ فَقَدْ صَدَقَ ﷺ.

إِذَنْ أَمْرَانِ: الْأَمْرُ الْأَوَّلُ تَوْثِيقُ النَّصِّ أَنْتُمْ تَكْذِبُونَ عَلَيَّ. قَالُوا: لَا، بَلْ قَالَ. فَلَمَّا رَاجَعُوهُ عَلِمَ أَنَّهُ قَالَ.

قَالَ: إِنْ كَانَ قَالَ فَقَدْ صَدَقَ.

فَإِذَا ثَبَتَ النَّصُّ فَلَيْسَ إِلَّا التَّسْلِيمُ لِلْوَحْيِ الْمَعْصُومِ إِنْ كُنْتَ نَاقِلًا فَالصِّحَّةُ أَوْ مُدَّعِيًا فَالدَّلِيلُ.

هَذَا قَانُونُ أَهْلِ الْعِلْمِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ هَذَا هُوَ الْقَانُونُ الْعِلْمِيُّ عِنْدَ جَمَاهِيرِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ سَلَفًا وَخَلَفًا.

«إِنْ كُنْتَ نَاقِلًا فَالصِّحَّةُ أَوْ مُدَّعِيًا فَالدَّلِيلُ» كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]، وَصَاغَ ذَلِكَ بِصِيَاغَةٍ أُخْرَىٰ، فَقَالَ: الْعِلْمُ نَقْلٌ مُصَدَّقٌ، فَهَذَا النَّقْلُ الْمُصَدَّقُ هُوَ الشَّطْرُ الْأَوَّلُ مِنْ تِلْكَ الْمَقُولَةِ عُلْمٌ مُحَقَّقٌ دَعْوَىٰ مُحَقَّقَةٌ، وَنَقْلٌ مُصَدَّقٌ، فَلَا بُدَّ مِنْ مُرَاعَاةِ ذَلِكَ، وَنَجْتَهِدُ فِي الدِّفَاعِ عَنْ دِينِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

سَتَجِدُ هَذَا كَثِيرًا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَجَالَاتِ كَمَا مَرَّ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِحَدِيثِ النُّزُولِ، وَأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كَمَا أَخْبَرَ الرَّسُولُ ﷺ: «**يَنْزِلُ فِي الثُّلُثِ الْأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا**،...»[2].

فَيَقُولُ قَائِلٌ عَلَىٰ حَسَبِ مَا تَعْلَمُهُ، وَيُعْمِلُهُ فِي غَيْرِ مَجَالِهِ فَيَقُولُ: وَلَكِنَّ هَذَا الثُّلُثَ الْأَخِيرَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْبِقَاعِ فِي الْأَرْضِ، فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ نِصْفَ الْكُرَةِ يَكُونُ فِيهِ نَهَارٌ، وَالنِّصْفَ الْآخَرَ يَكُونُ فِيهِ لَيْلٌ، وَالْحَدِيثُ يَقُولُ إِذَا كَانَ الثُّلُثُ الْأَخِيرُ مِنَ اللَّيْلِ فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ؟

وَيُعْمِلُ الْعَقْلَ مَعَ النَّصِّ، وَكَأَنَّ الَّذِي عَلِمَهُ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْحَيَاةِ فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَتِلْكَ الْأُمُورِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ فِي الْكَوْنِ كَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ حَاكِمًا عَلَىٰ

---

(١) «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَىٰ» (١/ ٢٤٦) (١٢/ ٦٣) (١٣/ ٣٢٩، و٣٤٤)، وَ«الِاسْتِغَاثَةُ» (ص٤١٠، دَارُ الْمِنْهَاجِ، الرِّيَاضُ)، قَالَ: «الْعِلْمُ إِمَّا نَقْلٌ مُصَدَّقٌ وَإِمَّا اسْتِدْلَالٌ مُحَقَّقٌ؛ وَمَا سِوَىٰ ذَلِكَ فَهَذَيَانٌ».

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي (التَّهَجُّدِ، ١٤: ١، رَقْمُ ١١٤٥) وَمَوَاضِعَ، وَمُسْلِمٌ فِي (صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ، ٢٤: ١، رَقْمُ ٧٥٨)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ الْمَعْصُومُ ﷺ إِلَىٰ أَمْثَالِ هَذِهِ الْخُرَافَاتِ وَالْخُزَعْبَلَاتِ.

وَكَمَا مَرَّ أَيْضًا، وَدَنْدَنَّا حَوْلَهُ طَوِيلًا، وَهَذَا نَافِعٌ فِي هَذَا وَنَظَائِرِهِ؛ أَنَّهُم يَرُدُّونَ حَدِيثَ الذُّبَابَةِ، عِنْدَ الْبُخَارِيِّ فِي «الصَّحِيحِ»(١): «**إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ كُلَّهُ، ثُمَّ لِيَطْرَحْهُ، فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ شِفَاءً، وَفِي الآخَرِ دَاءً**»، كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ.

فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ: هَذَا لَا يُمْكِنُ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ فِي «الصَّحِيحِ» لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ثَابِتًا عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، وَرَدُّوا الْحَدِيثَ.

بِمَاذَا؟

رَدُّوا الْحَدِيثَ بِأَنَّ الْعِلْمَ الْحَدِيثَ قَدْ أَثْبَتَ أَنَّ الذُّبَابَ نَاقِلٌ لِلْأَمْرَاضِ، وَأَنَّهُ يَقِفُ عَلَىٰ الْفَضَلَاتِ، وَالنُّفَايَاتِ، وَمَا أَشْبَهَ فَيَعْلَقُ بِهِ مَا يَعْلَقُ بِأَرْجُلِهِ، وَأَجْنِحَتِهِ مِنْ تِلْكَ الْمِيكْرُوبَاتِ، وَالْفَيْرُوسَاتِ، وَمَا أَشْبَهَ مِنَ الْأَحْيَاءِ الدَّقِيقَةِ أَثْبَتَ الْعِلْمُ ذَلِكَ يَقُولُونَ.

وَنَقُولُ: لَا حَرَجَ فَلْيُثْبِتِ الْعِلْمُ مِنَ الْحَقَائِقِ مَا شَاءَ اللهُ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَنَافَىٰ، ولَا أَنْ تَتَعَارَضَ مَعَ الثَّابِتِ مِنْ كَلَامِ اللهِ، وَكُلُّهُ ثَابِتٌ، وَمِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكَانَ مَاذَا؟

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي (بَدْءِ الْخَلْقِ، ١٧: ١، رَقْمُ ٣٣٢٠)، وَفِي (الطِّبِّ، ٥٨، رَقْمُ ٥٧٨٢)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

يَقُولُونَ: الدِّينُ دِينُ النَّظَافَةِ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْعَلَ النَّبِيَّ ﷺ نَاطِقًا بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ نَغْمِسُ الذُّبَابَ إِذَا وَقَعَ فِي الشَّرَابِ فَكَانَ مَاذَا؟

أَنْتُمْ تَقُولُونَ هَذَا؛ لِأَنَّكُمْ تَقُولُونَ إِنَّ الْعِلْمَ الْحَدِيثَ قَدْ أَثْبَتَ أَنَّ الذُّبَابَ يَحْمِلُ الْأَحْيَاءَ الدَّقِيقَةَ هَذِهِ الْأَحْيَاءُ الدَّقِيقَةُ كَانَتْ مَعْلُومَةً عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَنْ كَانَ فِي عَصْرِهِ، وَكَانَ الْعِلْمُ بِهَا ذَائِعًا مُنْتَشِرًا يَقُولُونَ لَا.

نَقُولُ: حَسْبُكَ الرَّسُولُ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ فِي إِحْدَىٰ جَنَاحَيْهِ دَاءً، وَصَدَّقَهُ الْعِلْمُ الْحَدِيثُ، فَإِنَّهُ مُنْذُ ثَلَاثِمِئَةِ عَامٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ كَانَ قَمَّاشٌ هُولَنْدِيٌّ يُقَالُ لَهُ (لُوبين هُوك)، وَكَانَ هَذَا الْقَمَّاشُ يَهْوَىٰ صُنْعَ الْعَدَسِ -جَمْعُ عَدَسَةٍ- فَصَنَعَ مِيكرُوسْكُوبًا بِدَائِيًّا، وَأَخَذ يَتَأَمَّلُ بِهِ، وَكَانَ طُلَعَةً هَذَا الرَّجُلُ كَانَ طُلَعَةً فَأَخَذَ يَنْظُرُ بِهِ فِي مَاءِ الْمَطَرِ، وَفِي اللُّعَابِ، وَفِي الْبَوْلِ، وَفِي الْبَرَازِ، وَفِي الْمَنِيِّ فَرَأَىٰ أَشْيَاءَ عَجِيبَةً فَأَثْبَتَهَا، فَهَذِهِ أَوَّلُ عَيْنٍ بَشَرِيَّةٍ نَظَرَتْ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ الدَّقِيقَةَ مُنْذُ ثَلَاثِمِئَةِ عَامٍ لَا أَكْثَرَ، بَلْ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ فَجَاءَ الْحَدِيثُ مُصَدِّقًا لِمَا جَهِلْتُمُوهُ لِمُدَّةِ أَلْفِ عَامٍ أَفَتَجْعَلُونَ مَا دَلَّ عَلَىٰ صِدْقِ نِصْفِ الْحَدِيثِ عِنْدَكُمْ دَاعِيًا لِتَكْذِيبِ نِصْفِهِ الْآخَرِ؟!!

لِمَاذَا لَا تَقُولُونَ مُتَطَامِنِينَ خَاشِعِينَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِنَّ الَّذِي أَخْبَرَ بِذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَهُ النَّاسُ بِأَلْفِ عَامٍ.

مَنِ الَّذِي أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِأَنَّ فِي إِحْدَىٰ جَنَاحَيِ الذُّبَابِ دَاءً، وَجَاءَ هَذَا الْأَمْرُ بِالْعِلْمِ الْحَدِيثِ فَصَدَّقَ ذَلِكَ، مَنِ الَّذِي أَخْبَرَهُ؟

www.menaa-un.com

هَذَا وَحْيٌ مَعْصُومٌ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﷺ أَفَتَجْعَلُونَ مَا كَانَ دَلِيلًا عَلَىٰ صِدْقِهِ دَاعِيَةً لِتَكْذِيبِهِ؟! أَهَذَا عَقْلٌ؟!

وَلِمَاذَا لَا تَقُولُونَ نَحْتَاجُ أَلْفَ عَامٍ أُخْرَىٰ لِكَيْ نُثْبِتَ النِّصْفَ الْآخَرَ مِنَ الْحَدِيثِ؟!

لِمَاذَا لَا تَقُولُونَ ذَلِكَ، وَقَدِ احْتَجْتُمْ أَلْفَ عَامٍ وَأَكْثَرَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُثْبِتُوا النِّصْفَ الْأَوَّلَ؟!

فَأَمْثَالُ هَذِهِ الْمَسَائِلِ عِنْدَمَا يَتَعَامَلُ بِهَا مَعَ نُصُوصِ الْوَحْيِ يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ طُلَّابُ الْعِلْمِ فِي وَجْهِ مَنْ يَقُولُ بِذَلِكَ لِرَدِّهِ وَدَفْعِهِ كَيْفَ يُرَدُّ؟

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا الزَّعْمُ بَاطِلٌ بِالشَّرْعِ، وَالْحِسِّ، وَالْعَقْلِ:

أَمَّا الشَّرْعُ: فَقَدْ سَبَقَتِ النُّصُوصُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ ثُبُوتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ فِي فَقْرَةِ (ب) مِمَّا يَلْتَحِقُ بِالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»(١)، مِنْ حَدِيثِ: ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَعْضِ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا،... وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: «**أَنَّ أَحَدَهُمَا لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ** -وَفِي رِوَايَةٍ: «**مِنْ بَوْلِهِ**»-، **وَأَنَّ الْآخَرَ كَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**».

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (الْجَنَائِزُ، ٨٨، رَقْمُ ١٣٧٨) (الْأَدَبُ، ٤٩، رَقْمُ ٦٠٥٥) وَمَوَاضِعَ، وَمُسْلِمٌ (الطَّهَارَةُ، ٣٤، رَقْمُ ٢٩٢).

* **قُلْتُ:** أَيَنْفَعُ مَعَ مِثْلِ هَذَا الَّذِي يُنْكِرُ عَذَابَ الْقَبْرِ وَنَعِيمَهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ الشَّرْعُ، نَعَمْ يَنْفَعُ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يُعْمِلُونَ عُقُولَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ يُنْكِرُونَ نَعِيمَ الْقَبْرِ وَعَذَابَهُ، وَيَدَّعُونَ مَسْأَلَةَ أَحَادِيثِ الْآحَادِ كَمَا مَرَّ فَنَقُولُ لَهُ نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ كَذَا، وَنَسُوقُ الْأَحَادِيثَ وَالْأَدِلَّةَ، وَنَقُولُ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَذَا وَكَذَا وَنَسُوقُ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللهُ: وَأَمَّا الْحِسُّ: فَإِنَّ النَّائِمَ يَرَىٰ فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ كَانَ فِي مَكَانٍ فَسِيحٍ بَهِيجٍ يَتَنَعَّمُ فِيهِ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ مُوحِشٍ يَتَأَلَّمُ مِنْهُ، وَرُبَّمَا يَسْتَيْقِظُ أَحْيَانًا مِمَّا رَأَىٰ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ فِي حُجْرَتِهِ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَالنَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ وَلِهَذَا سَمَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ «وَفَاةً»، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الزمر: ٤٢].

وَأَمَّا الْعَقْلُ: فَإِنَّ النَّائِمَ فِي مَنَامِهِ يَرَىٰ الرُّؤْيَا الْحَقَّ الْمُطَابِقَةَ لِلْوَاقِعِ، وَرُبَّمَا رَأَىٰ النَّبِيَّ ﷺ عَلَىٰ صِفَتِهِ، وَمَنْ رَآهُ عَلَىٰ صِفَتِهِ فَقَدْ رَآهُ حَقًّا[1]، وَمَعَ ذَلِكَ فَالنَّائِمُ فِي حُجْرَتِهِ عَلَىٰ فِرَاشِهِ بَعِيدًا عَمَّا رَأَىٰ، فَإِذَا كَانَ هَذَا مُمْكِنًا فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا، أَفَلَا يَكُونُ مُمْكِنًا فِي أَحْوَالِ الْآخِرَةِ؟!

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي (التَّعْبِيرِ، ١٠: ١، رَقْمُ ٦٩٩٣) وَفِي مَوَاضِعَ، وَمُسْلِمٌ فِي (الرُّؤْيَا، ١: ٢، رَقْمُ ٢٢٦٦)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

* **قُلْتُ:** وَشَيْءٌ آخَرُ هُوَ أَنَّنَا نَقُولُ لَهُ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ أَبْطَلَ بِخَلْقِكَ أَنْتَ زَعْمَكَ الَّذِي تَزْعُمُ، فَإِنْ قَالَ: كَيْفَ؟

نَقُولُ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ خَلَقَكَ فِي مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ خَلْقِكَ لَا يُمْكِنُ الْآنَ أَنْ تَتَصَوَّرَ نَفْسَكَ فِيهَا، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَعُودَ إِلَيْهَا، وَهِيَ الْمَرْحَلَةُ الْجَنِينِيَّةُ الَّتِي كُنْتَ فِيهَا.

هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ الْجَنِينِيَّةُ كُنْتَ فِيهَا عَلَىٰ قَانُونٍ، وَكُنْتَ فِيهَا مُكَوَّرًا عَلَىٰ نَفْسِكَ فِي بَطْنِ أُمِّكَ تَسْبَحُ فِي السَّائِلِ الْأَمنيُوسِيِّ، ثُمَّ تَتَغَذَّىٰ، وَتُخْرِجُ، وَتَتَنَفَّسُ، وَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُنَالِكَ مَحْفُوظًا حَتَّىٰ يَتَلَقَّىٰ الصَّدَمَاتِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَتَلَقَّاهَا الْأُمُّ فِي زَمَانِ الْحَمْلِ فَلا يُؤْذِيكَ ذَلِكَ، وَلَا يَضُرُّكَ، فَكُنْتَ فِي تَغْذِيَتِكَ، وَفِي إِخْرَاجِكَ، وَفِي تَنَفُّسِكَ، كُلُّ ذَلِكَ يَتِمُّ عِنْدَكَ لَا عَنْ طَرِيقِ الْمَعِدَةِ، وَلَا عَنْ طَرِيقِ الرِّئَتَيْنِ، وَإِنَّمَا يَتِمُّ ذَلِكَ كُلُّهُ عَنْ طَرِيقِ الْحَبْلِ السُّرِّيِّ.

هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ كُنْتَ فِيهَا أَمْ لَمْ تَكُنْ؟

فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ، وَلَمْ يَمُرَّ بِالْمَرْحَلَةِ الْجَنِينِيَّةِ فَلَا كَلَامَ لَنَا مَعَهُ؛ لِأَنَّهُ هَارِبٌ مِنْ وَرَاءِ أَسْوَارِ الْبِيمَارِسْتَانِ، هَذَا مَجْنُونٌ، فَلَا كَلَامَ لَنَا مَعَهُ، وَإِنْ قَالَ: كُنْتُ.

نَقُولُ: هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعُودَ إِلَيْهَا الْآنَ؟ وَهَلْ تَتَصَوَّرُهَا؟ هَلْ تَتَذَكَّرُهَا؟ هَلْ كَانَ قَانُونُ الْحَيَاةِ الْجَنِينِيَّةِ هُوَ هُوَ الْقَانُونُ الْفَاعِلُ الْعَامِلُ فِي الْحَيَاةِ بَعْدَ الْخُرُوجِ

مِنْ بَطْنِ الْأُمِّ أَمْ صِرْتَ إِلَىٰ قَانُونِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُوَ مُخَالِفٌ مُخَالَفَةً كَامِلَةً لِقَانُونِ الْحَيَاةِ الْجَنِينِيَّةِ؟

سَيَقُولُ: هُوَ مُخَالِفٌ مُخَالَفَةً كَامِلَةً لِقَانُونِ الْحَيَاةِ الْجَنِينِيَّةِ.

نَقُولُ: هَذَا مَرَرْتَ بِهِ، الْحَيَاةُ الْبَرْزَخِيَّةُ بَعْدَ الْمَوْتِ لَهَا قَانُونٌ مُخَالِفٌ لِقَانُونِ الْحَيَاةِ الْجَنِينِيَّةِ، وَلِقَانُونِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَإِذَا كُنْتَ قَدْ صَدَّقْتَ بِالْقَانُونِ الْأَوَّلِ، وَأَنْتَ جَنِينٌ فِي رَحِمِ أُمِّكَ فَلِمَاذَا تُنْكِرُ مَا سَيَكُونُ بَعْدُ؟

لِمَاذَا تُنْكِرُ مَا سَيَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَأَنْتَ إِنَّمَا عَلِمْتَ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِكَ فِي بَطْنِ أُمِّكَ لَا بِذَاتِكَ، وَمِنْ ذَاتِكَ، وَإِنَّمَا بِقِيَاسِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَا يَعْتَرِي أَمْثَالَكَ مِنْ نَوْعِكَ، وَهُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ؟

فَكَثِيرٌ مِنَ الْأُمُورِ إِنَّمَا تُعْلَمُ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ؛ لِأَنَّهُ مَنِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: أَنَا أُومِنُ بِأَنَّ لِي مُخًّا قَدِ احْتَوَتْهُ جُمْجُمَتِي؛ لِأَنِّي رَأَيْتُهُ، هَلْ رَأَيْتَهُ؟

وَقَبْلَ اخْتِرَاعِ جِهَازِ (الْأَشِعَّةِ السِّينِيَّةِ)، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَىٰ مَا هُنَالِكَ فَقَطْ، وَلَكِنْ لَا تُرِيكَ ذَلِكَ قَبْلَ هَذَا كَيْفَ عَرَفَ النَّاسُ أَنَّ لَهُمْ قُلُوبًا، وَأَنَّ لَهُمْ أَكْبَادًا، وَأَنَّ لَهُمْ أَحْشَاءً بِالْقِيَاسِ عَلَىٰ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ الَّتِي يَعْلَمُهَا الْإِنْسَانُ عَنْ هَذَا الطَّرِيقِ.

وكَذَلِكَ تَقُولُ لِهَذَا الَّذِي يُنْكِرُ تَقُولُ لَهُ: هَذَا الْقَانُونُ الَّذِي يَكُونُ فِي الْقُبُورِ فِي الْبَرْزَخِ مِنْ بَعْدِ الْوَفَاةِ إِلَىٰ الْقِيَامَةِ هَذَا قَانُونٌ يَشْمَلُ هَذِهِ الْفَتْرَةَ مِنَ الزَّمَنِ

بِالنِّسْبَةِ لِكُلِّ كَائِنٍ إِنْسَانِيٍّ مَاتَ، فَإِنَّهُ مُنْذُ يَمُوتُ إِلَىٰ أَنْ يُقِيمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ السَّاعَةَ هُوَ فِي الْبَرْزَخِ.

هَذِهِ الْحَيَاةُ الْبَرْزَخِيَّةُ لَهَا قَانُونٌ أَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تُحَاكِمَ الْحَيَاةَ الْبَرْزَخِيَّةَ لِقَانُونِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَحَاكِمِ الْحَيَاةَ الْجَنِينِيَّةَ بِقَانُونِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَقَطِّعِ الْأَحْبَالَ السُّرِّيَّةَ، وَأَخْرِجِ الْأَجِنَّةَ فَاجْعَلْهَا آكِلَةً مُخْرِجَةً مُتَنَفِّسَةً فِي خَارِجِ بُطُونِ الْأُمَّهَاتِ، وَهَذَا لَا يَسْتَقِيمُ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَذَلِكَ يَكُونُ كَذَلِكَ، وَلْتُعْمِلِ الْعَقْلَ، وَلْتَثُبْ إِلَىٰ الرُّشْدِ.

وَدِينُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِذَا اسْتَقَامَتِ الْفِطْرَةُ تَقَبَّلَتْهُ، وَتَلَقَّتْهُ بِالْقَبُولِ الْحَسَنِ، وَاسْتَقَامَتْ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ الْإِسْلَامَ الْفِطْرَةَ، وَالْفِطْرَةَ الْإِسْلَامَ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَطَرَ النَّاسَ جَمِيعًا حُنَفَاءَ مُسْلِمِينَ عَلَىٰ أَصْلِ الْفِطْرَةِ، وَلَكِنَّ الْغَبَشَ الَّذِي يُغَشِّي وَجْهَ الْفِطْرَةِ يُشَوِّهُ الصُّورَةَ الصَّحِيحَةَ الَّتِي تُتَلَقَّىٰ مِنَ الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ، وَالْوَحْيُ الْمَعْصُومُ لَا نَقُولُ يُلَامِسُ الْفِطْرَةَ، وَإِنَّمَا الْوَحْيُ الْمَعْصُومُ يُعَامِلُ هَذِهِ الْفِطْرَةَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُعِيدَهَا بَعْدَ اعْوِجَاجِهَا إِلَىٰ الطَّرِيقِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ، وَالَّذِي فَطَرَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ.

لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ فَطَرَ -أَيْ خَلَقَ- عِبَادَهُ جَمِيعًا حُنَفَاءَ مُسْتَقِيمِينَ مَائِلِينَ عَنِ الشِّرْكِ بَعِيدِينَ عَنِ الزَّيْغِ وَالْكُفْرِ فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَهَذَا يُغَشِّي وَجْهَ الْفِطْرَةِ، وَأَمَّا الْإِنْسَانُ الَّذِي يُعَامِلُ الْفِطْرَةَ الْمُعَامَلَةَ الصَّحِيحَةَ يَسْتَقِيمُ عَلَيْهَا نَاهِجًا نَهْجَهَا، فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤَدِّيَهُ ذَلِكَ إِلَىٰ الْإِيمَانِ الْحَقِّ بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وَلِذَلِكَ تَجِدُ الْمُنْصِفِينَ مِنَ الْغَرْبِيِّينَ، وَالشَّرْقِيِّينَ مِنَ الْكُفَّارِ، وَالْمُلْحِدِينَ؛ لِأَنَّ الْفِطْرَةَ تَسْتَقِيمُ عِنْدَهُمْ أَحْيَانًا اضْطِرَارًا، وَجَبْرًا عِنْدَمَا يَجِدُ الْقَوَانِينُ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كَوْنِهِ فَاعِلَةً فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا بِعَيْنِ فِطْرَتِهِ، وَتَسْتَقِيمُ عَلَيْهَا عَيْنُ بَصِيرَتِهِ لَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يُسَلِّمَ بِوُجُودِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْظُرُ فِي الْوَحْيِ فَيَجِدُ الْوَحْيَ مُسْتَقِيمًا مَعَ هَذِهِ الْقَوَانِينِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.

وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا، وَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ بِسَبَبِ نَظَرِهِمْ فِي عِلْمِهِمْ، وَبِسَبَبِ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنَ النَّظَرِ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ فَوَجَدُوا أَنَّ ذَلِكَ يَنْطِقُ بِهِ كِتَابُ اللهِ، وَتَنْطِقُ بِهِ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ غَيْرِ مُجَافَاةٍ!

وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَعَارَضَ حَقِيقَةٌ كَوْنِيَّةٌ مَعَ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَلَا مَعَ حَدِيثٍ ثَابِتٍ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ لَا يُمْكِنُ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ أَنَّ عَالِمًا فِي قَامَةِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- يُصَنِّفُ كِتَابًا مَاتِعًا مِنْ أَفْضَلِ مَا فِي الْمَكْتَبَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، بَلْ مِنْ أَفْضَلِ مَا فِي الْمَكْتَبَةِ الْعَالَمِيَّةِ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ كِتَابُ: «دَرْءُ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ».

دَرْءُ: أَيْ دَفْعُ «دَرْءُ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ» هَذَا الْكِتَابُ يَدُلُّ الشَّيْخُ فِيهِ عَلَىٰ أَنَّ الْعَقْلَ الصَّرِيحَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَعَارَضَ مَعَ النَّقْلِ الصَّحِيحِ لِمَاذَا؟

لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي أَوْحَىٰ مَا أَوْحَىٰ إِلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مَا خَلَقَ مِنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَعَارَضَ قَوْلُهُ مَعَ فِعْلِهِ الصَّادِقِ، لَا يَتَعَارَضُ مَقَالُهُ مَعَ أَفْعَالِهِ، لَا يُمْكِنُ، فَهَذَا خَلْقُهُ، وَهَذَا فِعْلُهُ.

خَلَقَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْخَلْقَ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَعَارَضَ فِعْلُهُ مَعَ كَلَامِهِ مَعَ مَقَالِهِ؛ الْقُرْآنُ كَلَامُهُ، وَوَحْيُهُ، وَكَذَلِكَ سُنَّةُ الرَّسُولِ ﷺ، وهَذِهِ الْقَوَانِينُ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي الْأَرْضِ مِنَ السُّنَنِ الْكَوْنِيَّةِ، فِعْلُهُ خَلْقُهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَعَارَضَ خَلْقُهُ مَعَ كَلَامِهِ، وَلَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ تَكُونَ حَقِيقَةً لَا أَنْ تَكُونَ نَظَرِيَّةً، وَكَثِيرًا مِنَ النَّاسِ إِذَا أُنْشِئَتْ نَظَرِيَّةٌ أَوْ قِيلَتْ فَإِنَّهُ يُسَارِعُ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ هَذِهِ عِنْدَنَا، وَيَلْوِي أَعْنَاقَ النُّصُوصِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقُولَ هِيَ عِنْدَنَا، وَنَحْنُ قُلْنَاهَا قَبْلَ أَنْ يَقُولَهَا الْبَشَرُ.

هَذَا لَا يَزِيدُنَا شَيْئًا فِي إِيمَانِنَا بِفَضْلِ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نَحْنُ نُؤْمِنُ بِكِتَابِ اللهِ، وَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ نَسْتَقِيمُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَنَعْمَلُ جَاهِدِينَ مِنْ أَجْلِ الِاسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ بِفَضْلِ رَبِّنَا، وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ بِحَوْلِ رَبِّنَا، وَطَوْلِهِ ﷻ.

نُؤْمِنُ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الطَّيِّبِينَ إِذَا أُذِيعَتْ نَظَرِيَّةٌ يُسَارِعُ إِلَىٰ الْقَوْلِ بِأَنَّهَا عِنْدَنَا كَمَا صَنَعَ مُحَمَّد عَبْدُه الْمِصْرِيُّ عِنْدَمَا قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْكَوَاكِبَ السَّبْعَ السَّيَّارَةَ هِيَ السَّبْعُ الطِّبَاقُ، فَلَمَّا ظَهَرَ وَاكْتُشِفَ ثَامِنٌ قِيلَ كَيْفَ تَقُولُ الْآنَ، وَمَاذَا تَقُولُ؟

قَالَ هِيَ هَذِهِ السَّبْعُ الْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَ الشَّمْسِ فَاكْتُشِفَ سَبْعٌ مِنْهَا فَلَمَّا اكْتُشِفَ الثَّامِنُ قَالَ هُوَ: إِنَّها هِيَ السَّبْعُ الطِّبَاقُ فَقِيلَ لَهُ فَمَا تَقُولُ الْآنَ وَقَدِ اكْتُشِفَ ثَامِنٌ، وَتَاسِعٌ فَمَاذَا تَقُولُ؟

فَلَا يُسَارَعُ إِلَىٰ مِثْلِ ذَلِكَ، وَلَا يَصْنَعُ كَمَا صَنَعَ الشَّيْخُ طَنْطَاوِي جُوهر فِي تَفْسِيرِهِ «الْجَوَاهِرُ» فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ فِيهِ مُكْتَشَفَاتِ أَهْلِ الْعَصْرِ عَلَىٰ عَصْرِهِ فَإِذَا تَعَرَّضَ مَثَلًا لِتَفْسِيرِ سُورَةِ النَّمْلِ يَكْتُبُ كُلَّ مَا كَتَبَ الْبَاحِثُونَ فِي عِلْمِ الْحَشَرَاتِ عَنِ النَّمْلِ، فَتَجِدُ كِتَابَهُ مَوْسُوعَةً تَحْوِي أَمْثَالَ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَتَخْلُو مِنَ التَّفْسِيرِ، لَا بَلْ لَا تَخْلُو مِنَ التَّفْسِيرِ فَقَطْ، بَلْ فِيهَا التَّفْسِيرُ الْمَغْلُوطُ، فِيهَا التَّفْسِيرُ الَّذِي يَأْتِي بِهِ أَهْلُ الْبِدَعِ يَلْوُونَ أَعْنَاقَ النُّصُوصَ.

وَكَمَا فَعَلَ مُحَمَّد عَبْدُه الْمِصْرِي أَيْضًا عِنْدَمَا أَرَادَ أَنْ يَقُولَ: قِصَّةُ الْفِيلِ ثَابِتَةٌ مِنْ حَيْثُ التَّارِيخُ، وَلَكِنَّ الَّذِي ذَكَرَهُ الْقُرْآنُ قَدْ يُشْكِلُ عَلَىٰ الْغَرْبِيِّينَ، وَالشَّرْقِيِّينَ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ.

قَالُوا: كَيْفَ تَأْتِي الطَّيْرُ الْأَبَابِيلُ، وَتَرْمِي بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، قَالَ: نَعَمْ سَنَجْعَلُ الْعَقْلَ حَاكِمًا، كَيْفَ؟

قَالَ هَذِهِ إِنَّمَا أَتَتْ بِالْمَيكْرُوبَاتِ فَلَمَّا أَصَابَهُمْ مَسُّ ذَلِكَ أَصَابَهُمُ الْمَرَضُ فَقَالَ لَهُ مَنْ قَالَ: وَيْحَكَ هُنَاكَ فِي الْأَمْرَاضِ مَا يُسَمَّىٰ بِفَتْرَةِ الْحَضَانَةِ، وَهِيَ الْفَتْرَةُ الَّتِي تَبْدَأُ مُنْذُ الْإِصَابَةِ بِالْمَيكْرُوبِ إِلَىٰ حِينِ ظُهُورِ الْأَعْرَاضِ عَلَىٰ الْمُصَابِ فَالْمَرَضُ الَّذِي ادَّعَيْتَ مِنَ الْجُدَرِيِّ أَوْ مِنَ الْحَاصِبَةِ حَتَّىٰ تَحْتَاجَ فَتْرَةَ حَضَانَةٍ، وَهَؤُلَاءِ مَاتُوا لِلتَّوِّ وَاللَّحْظَةِ، فَكَيْفَ يَسْتَقِيمُ كَلَامُكَ فِي أَنَّهَا حَمَلَتِ الْمَيكْرُوبَات، وَأَلْقَتْ بِهَا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، وَأُصِيبُوا بِالْمَرَضِ؟!

كَلَامُ اللهِ ﷻ أَجَلُّ، وَأَعْظَمُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، وَالتَّفْسِيرُ لَهُ طَرِيقٌ، وَضَّحَهُ السَّلَفُ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ.

فَسَّرُوا الْقُرْآنَ بِالْقُرْآنِ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَسِّرِ الْقُرْآنَ بِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلَامِ الْأَصْحَابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِينَ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَتَعُودُ إِلَىٰ اللُّغَةِ، وَتَنْظُرُ فِي اللُّغَةِ، وَلَا تَتَعَسَّفْ.

وَلَا يُقْدِمُ أَحَدٌ عَلَىٰ التَّفْسِيرِ إِلَّا إِذَا كَانَ مُؤَهَّلًا كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ-: «**لَا يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ إِلَّا مَنْ حَازَ ثَلَاثَةً وَعِشْرِينَ عِلْمًا**»، الَّذِي يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ يَنْبَغِي أَنْ يَحُوزَ ثَلَاثَةً وَعِشْرِينَ عِلْمًا، وَلَا يُغْنِي أَنْ تَقُولَ مَثَلًا لَيْسَ بِتَفْسِيرٍ، وَلَكِنْ هُوَ خَوَاطِرُ أَوْ هُوَ ظِلَالٌ، وَلَيْسَ تَفْسِيرًا قُلْ هَذَا وَهْمٌ أَيْضًا.

وَلَا يَتَعَامَلُ مَعَ كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِمِثْلِ هَذِهِ الصُّورَةِ، كَلَامُ اللهِ.

إِذَا كُنْتَ أَنْتَ تَرَىٰ خَلْقَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَتَمْتَلِئُ النَّفْسُ إِيمَانًا، وَرَوْعَةً، وَرَهْبَةً عِنْدَمَا تَرَىٰ مِنْ خَلْقِ اللهِ مَا تَرَىٰ مِنَ الْأَجْرَامِ الْعَظِيمَةِ الْكَبِيرَةِ السَّابِحَاتِ فِي الْفَلَكِ مِمَّا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَدَّرَ فِي حَجْمِهِ، وَلَا فِي بُعْدِ مَسَافَتِهِ، وَلَا يُتَصَوَّرُ، وَعِنْدَمَا يَنْظُرُ إِلَىٰ ذَلِكَ تِلِيسْكُوبَاتُ الرَّادِيَاوِيَّةُ الَّتِي تَتَعَامَلُ مَعَ الْأَطْيَافِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَيَنْظُرُ فِي ذَلِكَ تَرَىٰ أَمْرًا عَجَبًا تَمْتَلِئُ مِنْهُ النَّفْسُ رَوْعَةً.

وَتَمْتَلِئُ النَّفْسُ مِنْهُ رَهْبَةً عِنْدَمَا تَرَىٰ الشَّلَّالَاتِ عِنْدَمَا تَرَىٰ الْعَوَاصِفَ، وَالْأَعَاصِيرَ عِنْدَمَا تَرَىٰ مَا تَرَىٰ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ مِنَ الزَّلَازِلِ، وَالْبَرَاكِينِ، بَلْ عِنْدَمَا

تَنْظُرُ فِي أَدَقِّ الْأَشْيَاءِ كَمَا تَنْظُرُ فِي أَدَقِّ الْمَخْلُوقَاتِ مِمَّا تَوَصَّلَ النَّاسُ إِلَىٰ النَّظَرِ إِلَيْهِ مُكَبَّرًا إِلَىٰ مَا يَصِلُ إِلَىٰ رُبُعِ مِلْيُونِ مَرَّةٍ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَرَاهُ الْعَيْنُ، وَنِصْفُ مِلْيُونِ مَرَّةٍ يُكَبَّرُ نِصْفَ مِلْيُونِ مَرَّةٍ، وَأَكْثَرَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ مَنْظُورًا.

أَمْثَالُ هَذِهِ الْأُمُورِ مِمَّا يُدْرِكُهُ الْعَقْلُ، وَلَا تَرَاهُ الْعَيْنُ مَهْمَا كُبِّرَ؛ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ الْبَشَرِيَّةَ لَا تَصِلُ إِلَىٰ مِثْلِ ذَلِكَ عِنْدَمَا تَرَىٰ هَذَا، وَتَتَأَمَّلُ فِيهِ تَقُولُ: سُبْحَانَ اللهِ! تَمْتَلِئُ النَّفْسُ رَوْعَةً إِذَا كَانَتِ النَّفْسُ يَدْخُلُ عَلَيْهَا مَا يَدْخُلُ مِنَ الرَّوْعَةِ، وَالْإِيمَانِ، وَالتَّصْدِيقِ، وَالْإِخْبَاتِ، وَالْخُشُوعِ، وَالْإِذْعَانِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالنَّظَرِ فِي الْخَلْقِ فَكَيْفَ بِكَلَامِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ؟!

فَإِذَنِ الَّذِي يَسْتَقِيمُ أَنْ يَكُونَ أَثَرُ الْقُرْآنِ فِي النَّفْسِ أَقْوَىٰ مِنْ هَذِهِ الْآثَارِ جَمِيعِهَا، وَلَكِنْ أَيْنَ عِنْدَ مَنْ يَتَدَبَّرُ فَلَا يُعَامَلُ الْقُرْآنُ بِمِثْلِ هَذِهِ الصُّورَةِ، وَإِنَّمَا يُنْظَرُ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ قَانُونِ السَّلَفِ كَمَا نَظَرَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم يَنْظُرُونَ فِي كِتَابِ اللهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ يَنْظُرُونَ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ قَانُونٍ، وَبِنِظَامٍ فَلَا يُتَجَاوَزُ حَتَّىٰ يُمْكِنَ أَنْ تَتَحَصَّلَ عَلَىٰ الْفَائِدَةِ مِنَ النَّظَرِ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وَأَمَّا التَّهْوِيمَاتُ، وَأَمَّا التَّعَسُّفَاتُ، وَأَمَّا لَيُّ أَعْنَاقِ الْآيَاتِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ إِدْخَالِ الْوَسَائِلِ الْحَدِيثَةِ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا لَا يَنْبَغِي

مُطْلَقًا أَنْ يَكُونَ، بَلْ هُوَ كَلَامُ اللهِ، وَكَلَامُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ.

فَإِذَا كَانَ الْبَهْرُ، وَالرَّوْعُ، وَإِذَا كَانَ الدَّهَشُ، وَالْعَجَبُ، وَإِذَا كَانَ الْإِيمَانُ، وَالْيَقِينُ يَصِلُ بِالنَّفْسِ إِلَىٰ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ بِهَا عِنْدَ النَّظَرِ فِي مَخْلُوقَاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فَكَيْفَ بِالنَّظَرِ فِي آيَاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي كَلَامِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، هَذَا يَكُونُ أَعْلَىٰ وَأَجَلَّ، وَلِذَلِكَ لَا يَشْبَعُ مِنْ كَلَامِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْمُتَّقُونَ.

الْمُؤْمِنُونَ الْفَالِحُونَ يُدْمِنُونَ النَّظَرَ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَيَكُونُ الْمَرْدُودُ فِي نُفُوسِهِمْ، وَفِي قُلُوبِهِمْ، وَفِي أَرْوَاحِهِمْ مِمَّا لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، وَلَكِنَّ النُّفُوسَ لَا تَتَفَتَّحُ لِكَلَامِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا لِآيَاتِهِ؛ لِأَنَّ فِيهَا مَا فِيهَا مِنَ الدَّغَلِ فَحَرَمَنَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بَرَكَةَ النَّظَرِ فِي كِتَابِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ النَّحْوِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللهُ: وَأَمَّا اعْتِمَادُهُمْ فِيمَا زَعَمُوهُ عَلَىٰ أَنَّهُ لَوْ كُشِفَ عَنِ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ لَوُجِدَ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ، وَالْقَبْرُ لَمْ يَتَغَيَّرْ بِسَعَةٍ وَلَا ضِيقٍ، فَجَوَابُهُ مِنْ وُجُوهٍ مِنْهَا:

* **قُلْتُ**: الْوَجْهُ الَّذِي ذَكَرْتُهُ، وَهُوَ أَنَّكَ تَقُولُ هَذِهِ حَالَةٌ لَهَا قَانُونٌ، وَحَيَاةٌ لَهَا قَانُونٌ يَحْكُمُهَا، وَهِيَ الْحَيَاةُ الْبَرْزَخِيَّةُ، وَلَا تَخْضَعُ لِقَانُونِكَ أَنْتَ. أَنْتَ تُرِيدُ أَنْ

تُحَاكِمَ الْحَيَاةَ الْبَرْزَخِيَّةَ لِقَانُونِ الدُّنْيَا الَّذِي أَنْتَ تَعْرِفُهُ، وَالَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، وَهَذَا لَا يَسْتَقِيمُ؛ لِأَنَّ الْحَيَاةَ الْجَنِينِيَّةَ كَانَ لَهَا قَانُونٌ، وَعِشْتَهَا، وَكُنْتَ خَاضِعًا لِقَانُونِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ أَنْتَ لَا يُمْكِنُ بِحَالٍ أَنْ تَخْضَعَ لِقَانُونِهَا الْآنَ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَصَوَّرَهُ فَذَلِكَ كَذَلِكَ، فَهَذا يُقَالُ أَوَّلًا.

قَالَ الشَّيْخُ العَلَّامَةُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ الْعُثَيْمِينِ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ لَا تَجُوزُ مُعَارَضَةُ مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ بِمِثْلِ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ الدَّاحِضَةِ الَّتِي لَوْ تَأَمَّلَ الْمُعَارِضُ بِهَا مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ حَقَّ التَّأَمُّلِ لَعَلِمَ بُطْلَانَ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ وَقَدْ قِيلَ:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا ... وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ(١)

الثَّانِي: أَنَّ أَحْوَالَ الْبَرْزَخِ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ الَّتِي لَا يُدْرِكُهَا الْحِسُّ، وَلَوْ كَانَتْ تُدْرَكُ بِالْحِسِّ لَفَاتَتْ فَائِدَةُ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَلَتَسَاوَىٰ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، وَالْجَاحِدُونَ فِي التَّصْدِيقِ بِهَا.

الثَّالِثُ: أَنَّ الْعَذَابَ وَالنَّعِيمَ وَسَعَةَ الْقَبْرِ وَضِيقَهُ إِنَّمَا يُدْرِكُهَا الْمَيِّتُ دُونَ غَيْرِهِ، وَهَذَا كَمَا يَرَىٰ النَّائِمُ فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ مُوحِشٍ، أَوْ فِي مَكَانٍ وَاسِعٍ بَهِيجٍ، وَهُوَ بِالنِّسْبَةِ لِغَيْرِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ مَنَامُهُ هُوَ فِي حُجْرَتِهِ وَبَيْنَ فِرَاشِهِ وَغِطَائِهِ.

---

(١) الْبَيْتُ لِأَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي فِي «دِيوَانِهِ» (ص٢٣٢، دَارُ بَيْرُوت)، مِنْ قَصِيدَةٍ يَقُولُ فِي مَطْلَعِهَا: «إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومِ».

وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوحَىٰ إِلَيْهِ وَهُوَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ فَيَسْمَعُ الْوَحْيَ، وَلَا يَسْمَعُهُ الصَّحَابَةُ، وَرُبَّمَا يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُهُ وَالصَّحَابَةُ لَا يَرَوْنَ الْمَلَكَ، وَلَا يَسْمَعُونَهُ.

الرَّابِعُ: أَنَّ إِدْرَاكَ الْخَلْقِ مَحْدُودٌ بِمَا مَكَّنَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ إِدْرَاكِهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُدْرِكُوا كُلَّ مَوْجُودٍ، فَالسَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَكُلُّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللهِ تَسْبِيحًا حَقِيقِيًّا يُسْمِعُهُ اللهُ تَعَالَىٰ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ أَحْيَانًا، وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ مَحْجُوبٌ عَنَّا، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وَهَكَذَا الشَّيَاطِينُ، وَالْجِنُّ، يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ ذَهَابًا وَإِيَابًا، وَقَدْ حَضَرَتِ الْجِنُّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاسْتَمَعُوا لِقِرَاءَتِهِ وَأَنْصَتُوا وَوَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. وَمَعَ هَذَا فَهُمْ مَحْجُوبُونَ عَنَّا، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وَإِذَا كَانَ الْخَلْقُ لَا يُدْرِكُونَ كُلَّ مَوْجُودٍ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُنْكِرُوا مَا ثَبَتَ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ، وَلَمْ يُدْرِكُوهُ.

www.menhag-un.com

* **قُلْتُ:** فِي قَوْلِ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾: دَلَالَةٌ عَلَىٰ عِظَمِ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ لِابْنِ آدَمَ فَإِنَّهُ جَادٌّ، وَحَرِيصٌ عَلَىٰ هَتْكِ عِرْضِكَ، وَكَشْفِ سَوْأَتِكَ كَمَا فَعَلَ مَعَ أَبِيكَ وَأُمِّكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

فَالشَّيْطَانُ جَادٌّ، وَحَرِيصٌ عَلَىٰ كَشْفِ السَّوْأَةِ، وَهَتْكِ الْعَوْرَةِ لَا يَزَالُ يُؤَدِّي بِالْخَلْقِ إِلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ يَصِيرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَىٰ مَا صَارُوا إِلَيْهِ الْيَوْمَ يَتَسَافَدُونَ كَالْحُمُرِ فِي الطُّرُقَاتِ، وَتَحْتَ الْأَعْيُنِ، وَإِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

نَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَعْفُوَ عَنَّا وَعَنْكُمْ، وَأَنْ يُحْسِنَ خِتَامَنَا وَخِتَامَكُمْ، وَأَنْ يَجْمَعَنَا جَمِيعًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَىٰ مِنَ الْجَنَّةِ؛ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ.

منهاج النبوة
www.menhag-un.com